المختصر في كتاب الأسبوع رقم 168

إبليس في التحليل النفسي

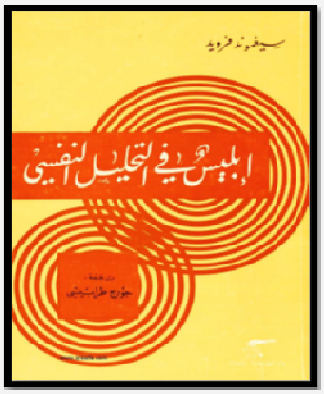

تأليف: دكتور سيغموند فرويد

ترجمة: د. جورج طرابيشي

تلخيص: أ. م. د. سند محمد حيدر – أستاذ علم النفس الطبي المساعد

قسم العلوم السلوكية/ كلية الطب والعلوم الصحية/ جامعة عدن – اليمن.

تحرير: أ. د. معن عبدالباري قاسم صالح – أستاذ علم النفس السريري(العيادي) المشارك

قسم الطب النفسي/ كلية الطب/ جامعة الامام عبد الرحمن بن فيصل (الدمام سابقا)

Maanslaeh62@yahoo.com

سيغموند فرويد (1856-1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي

اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي

أكتشف عدد من الباحثين كما هو معلوم، وعلى رأسهم شاركو، تظاهرات الهستيريا في تمثيلات المس الشيطاني والانجذاب التي أورثنا إياها الفن

ما كان ليعسر اكتشاف مضمون العصاب في تاريخ هذه الأمراض فيما لو وجد عصرنا من يعيرها المزيد من الانتباه. لقد كانت النظرية الابليسية الشائعة في

نبذة مختصرة عن المؤلف:

سيغموند فرويد (1856–1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي. كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلًا عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، ونظريته من التحول في العلاقة العلاجية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي.

نبذة مختصرة عن المترجم:

من مواليد مدينة حلب في سوريا عام 1939، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق، ورئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية، ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة. تميز بكثرة ترجماته ومؤلفاته حيث ترجم لفرويد وهيغل وسارتر وبرهييه وغارودي وسيمون دي بوفوار وآخرين. بلغت ترجماته ما يزيد عن مئتي كتاب في الفلسفة، والأيديولوجيا، والتحليل النفسي، والرواية، له مؤلفات هامة في الماركسية والنظرية القومية وفي النقد الأدبي للرواية العربية التي كان سباقاً في اللغة العربية إلى تطبيق مناهج التحليل النفسي عليها.

صدرت الطبعة الأولى– شباط (فبراير) 1980، الطبعة الثانية– شباط (فبراير) 1982، من دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت، عدد صفحات الكتاب 103 صفحة. أحتوى الكتاب في متنه على الفصول التالية:

الفصل الأول: عصاب شيطاني من القرن السابع عشر.

الفصل الثاني: الأفعال التسلطية والشعائر الدينية.

الفصل الثالث: موازيات ميثولوجية لتمثل وسواسي تشكيلي.

الفصل الرابع: حادث من الحياة الدينية.

الفصل الخامس: التحليل النفسي وإثبات الوقائع في المضمار القضائي بمنهج تشخيصي.

الفصل السادس: طباق المعاني في الألفاظ البدائية.

الفصل السابع: صعوبة أمام التحليل النفسي.

الفصل الأول: عصاب شيطاني من القرن السابع عشر ص 5- 6

كتب فرويد، بينما أعصبة عصرنا الحاضر، الذي لا يزال يخطو خطواته الأولى في مضمار علم النفس، تتبدى. وقد تنكرت في إهاب أمراض عضوية، أقرب في المظهر إلى الهجاس السوداوي. أكتشف عدد من الباحثين كما هو معلوم، وعلى رأسهم شاركو، تظاهرات الهستيريا في تمثيلات المس الشيطاني والانجذاب التي أورثنا إياها الفن؛ والحق أنه ما كان ليعسر اكتشاف مضمون العصاب في تاريخ هذه الأمراض فيما لو وجد عصرئذ من يعيرها المزيد من الانتباه. لقد كانت النظرية الابليسية الشائعة في تلك الأزمنة المظلمة أقرب إلى الصحة والصواب من جميع التأويلات البدنية التي رأت النور

في حقبة الرياضيات التي سميت ب "العلوم الدقيقة". فضروب المس تناظر اعصبتنا التي عمدنا إلى تفسيرها بالاستعانة من جديد بالقوى النفسية. فالأبالسة في نظرنا، نحن، رغبات شريرة، مستهجنة، تنبع من دوافع مكبوحة– مكبوتة. وكل ما هنالك اننا نتحاشى اسقاط هذه الخلائق النفسية في العالم الخارجي على نحو ما كان يفعل العصر الوسيط؛ بل ندعها تولد في حياة المرضى الداخلية حيث مكان اقامتها.

1- قصة الرسام كرستوف هايتزمن ص 6- 14

في 15 أيلول (سبتمبر) 1677، اقتيد الرسام البافاري كرستوف هايتزمن، وهو يحمل رسالة توصية من خوري بلدة بوتنبرون (جنوب النمسا)، إلى ماريازل، القريبة منها. وكان قد أقام عدة أشهر في بوتنبرون، يزاول فيها فنه، وفيها أصابته في 29 آب (أغسطس)، وهو في داخل الكنيسة، تشنجات رهيبة؛ ولما تجددت هذه التشنجات في الأيام التالية، تم فحصه، وسؤاله عما يعذبه وإن كان تورط في علاقة محرمة مع إبليس. وللحال أعترف بأنه كان قبل تسع سنوات، في زمن وهنت فيه مقدرته الفنية وخاف أن تضيق به سبل العيش، قد استسلم لإغراء الشيطان– الذي كان قد سعى تسع مرات إلى ايقاعه في التجربة– وتعهد له خطيا بأن يسلس له قياد جسمه وروحه لدى انقضاء الميقات. وكان أجل ذلك قد اقترب: الرابع والعشرون من الشهر الجاري آنئذ. وعض الشقي أصابع الندم وداخله الاعتقاد بأن نعمة والدة الله، عراء ماريازل، هي وحدها التي تستطيع إنقاذه بإرغامها ابليس على أن يعيد اليه العهد الذي خطه بدمه. ولهذا أباح كاتب التوصية لنفسه أن يوجه رسالته إلى رهبان ماريازل من الآباء الصالحين ليشملوا بعطفهم وحسن التفاتهم "هذا الرجل البائس الذي ليس له من معين". أستطيع الآن أن أتابع قصة الرسام. فبعد طول توبة وتكفير وصلاة في ماريازل، وبتاريخ 8 أيلول (سبتمبر)، وهو عيد ميلاد العذراء، وعند منتصف الليل، أسترد من الشيطان، الذي ظهر في المزار المقدس في صورة تنين مجنح، العهد المحرر بالدم. وسوف نعلم لاحقا، على دهشة عظيمة منا، أن قصة الرسام كرستوف هايتزمن تشتمل على عهدين مع الشيطان: عهد كتب بالحبر الأسود، وآخر حرر بالدم. وكانت المعجزة كبيرة، وانتصار والدة الله القديسة على الشيطان لا ريب فيه. لكن الشفاء لم يكن للأسف دائما. ولنؤكد مرة أخرى على نزاهة الرهبان إذ لم يخفوا هذه الواقعة عن الأنظار. فقد غادر الرسام ماريازل بعيد ذلك، وهو في أحسن حال، وقصد فيينا حيث أقام لدى شقيقة له متزوجة. وهناك انتابته، في 11 تشرين الأول، نوبات جديدة، وأكثرها خطير للغاية، لكن ليس الشيطان من كان يعوده هذه المرة، وانما اشخاص قديسون كالمسيح والعذراء القديسة بنفسها. وينبغي أن نقر من جديد بأن الطابع المغرض لعمل الناسخ لم يحمله مع ذلك على الحيدان عن جادة الصدق الذي من حقنا أن نطالب به أي راو لقصة مريض. فهو لا يخفي النتائج التي تمخض عنها تحقيق أجري، بعد وفاة الرسام، لدى سلطات دير أخوة الرأفة سنة 1714. فالأب الموقر رئيس الدير يروي أن الأخ كريزوستوموس تعرض عدة مرات أخرى لهجمات ابليس الذي كان يريد

تلك الأزمنة المظلمة أقرب إلى الصحة والصواب من جميع التأويلات البدنية التي رأت النور

الأبالسة في نظرنا، نحن، رغبات شريرة، مستهجنة، تنبع من دوافع مكبوحة– مكبوتة. وكل ما هنالك اننا نتحاشى اسقاط هذه الخلائق النفسية في العالم الخارجي على نحو ما كان يفعل العصر الوسيط؛ بل ندعها تولد في حياة المرضى الداخلية حيث مكان اقامتها

إذا نظرنا إلى قصة هذا العهد الشيطاني على أنها قصة مرض عصابي، فإن مشكلة تعليل العهد– وهي مشكلة ذات صلة وثيقة أصلا بمشكلة تسبيب المرض

أول ما يستأثر باهتمامنا. فلماذا يهب الإنسان نفسه للشيطان؟ صحيح إن الدكتور فاوست يسأل بازدراء: "ما بوسعك أن تعطيه، وأنت نفسك شيطان مسكين؟".

لم يكن على حق: فالشيطان يملك أن يعطي، مقابل نفس خالدة، كل صنوف الأشياء التي يثمنها بنو البشر عالي التثمين: الثروة، الأمان في خضم الخطر، السلطان على الناس وعلى قوى الطبيعة، بل حتى الفنون السحرية، ولكن أولا، وقبل كل شيء، المتعة، التمتع بجميلات النساء

نحن إذن أمام شخص يبيع نفسه للشيطان بغية الخلاص من اكتئاب نفسي. وهذه في الحق ذريعة ممتازة! وهي مفهومة تمام بالنسبة إلى أي شخص يقدر على وضع نفسه موضع انسان يعاني آلام مثل تلك الحالة

أن يجره إلى عقد عهد جديد، ولكن هذا فقط "عندما كان يفرط قليلا في شرب الخمر"، غير أنه أمكن على الدوام، بفضل نعمة الله، رد الشيطان على اعقابه.

2- علة العهد مع الشيطان ص 14- 18

إذا نظرنا إلى قصة هذا العهد الشيطاني على أنها قصة مرض عصابي، فإن مشكلة تعليل العهد- وهي مشكلة ذات صلة وثيقة أصلا بمشكلة تسبيب المرض- ستكون أول ما يستأثر باهتمامنا. فلماذا يهب الإنسان نفسه للشيطان؟ صحيح إن الدكتور فاوست يسأل بازدراء: "ما بوسعك أن تعطيه، وأنت نفسك شيطان مسكين؟". لكنه لم يكن على حق: فالشيطان يملك أن يعطي، مقابل نفس خالدة، كل صنوف الأشياء التي يثمنها بنو البشر عالي التثمين: الثروة، الأمان في خضم الخطر، السلطان على الناس وعلى قوى الطبيعة، بل حتى الفنون السحرية، ولكن أولا، وقبل كل شيء، المتعة، التمتع بجميلات النساء. فماذا يمكن أن تكون، والحالة هذه، بالنسبة إلى كر. هايتزمن علة عهده؟ ليس لأية رغبة من هذه الرغبات الطبيعية تماما. مهما بدا ذلك باعثا على العجب. وتلافيا لكل حيرة وتردد. حسبنا أن ندقق النظر في التعليقات المقتضبة التي يرفق بها الرسام ظهورات الشيطان التي صورها. يقدم لنا **التذكار** في الواقع بصدد هذه النقطة معلومة موثوقة. إذ لما استبدت بالرسام السويداء، كان قد أمسى عاجزا أو عارفا عن العمل، وقد ركبته الهموم بصدد تدبير أمر معاشه، مما يعني أنه مصابا بهبوط سوداوي مع كف عن العمل وخشية (لها ما يبررها) على قوت يومه. إذن فالقصة التي بين أيدينا قصة مريض فعلا، ونحن نعلم في الوقت نفسه ما كان سبب هذا المرض الذي سماه الرسام نفسه، وبصريح العبارة، بالسويداء ("لذا كان ينبغي أن أتلى وأطرد السويداء"). نحن إذن أمام شخص يبيع نفسه للشيطان بغية الخلاص من اكتئاب نفسي. وهذه في الحق ذريعة ممتازة! وهي مفهومة تمام بالنسبة إلى أي شخص يقدر على وضع نفسه موضع انسان يعاني آلام مثل تلك الحالة ويعرف، فضلا عن ذلك، مدى ضآلة قدرة فن الطب على تسكين هذا الداء. ومع ذلك، ليس لأحد من قرائنا أن يحزر ما العبارات التي صيغ بها العهد المعقود مع الشيطان أو بالأحرى العهدان الاثنان، وأولهما كتب بالحبر، وثانيهما حرر بالدم بعد زهاء نصف عام، وكلاهما محفوظ، كما هو مذكور، في مدخر ماريازل، ومنسوخ في التذكار. يتعهد الشيطان للرسام، لسنوات تسع، بأن يقوم له مقام والده المتوفي. فإذا ما انقضى هذا الأجل، وقع الرسام جسما وروحا تحت سلطانه، بحسب الصيغة الدارج استعمالها في هذا النوع من الصفقات. وعليه، فإن مستر أفكار الرسام، التي كانت حافزة إلى فعلته، يتحدد كما يلي على ما يبدو: لقد فقد، بوفاة أبيه، كل رغبة في العمل وكل مقدرة عليه؛ فإن وجد بديلا لهذا الأب، فأمله عندئذ أن يعوض عن هذه الخسارة. وحتى يغدو المرء سوداويا بعد وفاة أبيه، فلابد أن يكون قد أحبه حبا جما. ولكن من المستغرب في هذه الحال أن تخطر في بال الابن فكرة اتخاذ الشيطان بديلا عن ذلك الاب المحبوب.

3- شيطان بديل الأب ص 18- 31

إن نكن قد اوضحنا بلا مماراة مغزى هذا العهد مع الشيطان بالاستناد إلى ذلك التأويل المقلوب، فهذا ما لن يسلّم لنا به- أخشى ذلك- نقد هادئ. فبوسع نقد كهذا أن يواجهنا بالاعتراضين التاليين. فليس من الضروري أولا اعتبار العهد عقدا ينص على التزامات الطرفين. بل هو لا يشتمل بالأحرى إلا على التزام الرسام؛ على اعتبار أن التزام الشيطان بقي مستبعدا من النص، بوصفه "مضمرا" بنوع ما. والحال أن الرسام يلتزم التزامين: أولا بأن يعتبر نفسه ابن الشيطان لمدى تسع سنوات، ثم بأن يكون ملكه جسما وروحا بعد مماته. وهذا الاعتراض إذا صح يكون قد قوّض أحد الأسس التي بنينا عليها استنتاجنا. أما الاعتراض الثاني فمؤداه أنه لا يجوز إعطاء عبارة "أن أكون ابنه من اصله" وزنا أكبر مما ينبغي، وأنها قد لا تعدو أن تكون أسلوبا دارجا في الكلام على نحو ما فهمها السادة الرهبان. فإن صح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان استيهاما عصابيا. فليس لنا أن نعتذر عن نظرنا إليه من الزاوية التحليلية النفسية.

ليس لأحد من قرائنا أن يحزر ما العبارات التي صيغ بها العهد المعقود مع الشيطان أو بالأحرى العهدان الاثنان، وأولهما كتب بالحبر، وثانيهما حرر بالدم بعد زهاء نصف عام، وكلاهما محفوظ، كما هو مذكور، في مدخر ماريازل، ومنسوخ في التذكار

لقد فقد، بوفاة أبيه، كل رغبة في العمل وكل مقدرة عليه؛ فإن وجد بديلا لهذا الأب، فأمله عندئذ أن يعوض عن هذه الخسارة

حتى يغدو المرء سوداويا بعد وفاة أبيه، فلابد أن يكون قد أحبه حبا جما. ولكن من المستغرب في هذه الحال أن تخطر في بال الابن فكرة اتخاذ الشيطان بديلا عن ذلك الاب المحبوب.

إن صح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان استيهاما عصابيا. فليس لنا أن نعتذر عن نظرنا إليه من الزاوية التحليلية النفسية. فالقرائن الصغيرة لها أيضا مغزاها وقيمتها، وعلى الأخص متى ما كان المطلوب تحديد الشروط التي رأى فيها العصاب النور

إذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي، ولا حتى بالشيطان، فلا نملك إلا أن ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة الرسام، سواء أأفلح في تفسيرها بوسائله الخاصة أم لم يجد فيها ما يستأهل توضيحا.

يظهر الشيخ بمظهر مرعب أكثر فأكثر، بل ربما جاز لنا أن نقول: بمظهر أكثر

فالقرائن الصغيرة لها أيضا مغزاها وقيمتها، وعلى الأخص متى ما كان المطلوب تحديد الشروط التي رأى فيها العصاب النور. صحيح أنه من الممكن التهوين من شأنها سواء بسواء، وانها لمسألة حصافة أن يدرك المرء مدى ما يمكن تعليقه عليها من قيمة. لكن إذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي، ولا حتى بالشيطان، فلا نملك إلا أن ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة الرسام، سواء أأفلح في تفسيرها بوسائله الخاصة أم لم يجد فيها ما يستأهل توضيحا.

لنعد اذن إلى فرضيتنا: إن الشيطان، الذي ينذر الرسام نفسه له، هو في نظره بديل الأب. والشخص الذي يظهر الشيطان في صورته للمرة الأولى بتجاوب وهذه الفرضية: فهو بورجوازي محترم متقدم قليلا في السن، ذو لحية سمراء، ومعطف أحمر، وقبعة سوداء، يده اليمنى تستند إلى عصا، وإلى جانبه كلب أسود. وبعد ذلك يظهر الشبح بمظهر مرعب أكثر فأكثر، بل ربما جاز لنا أن نقول: بمظهر أكثر أسطورية؛ فمن عنده قرون ومخالب نسر وأجنحة خفاش. وفي الأخير يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر. بالمقابل، نعلم أن الشيطان الرجيم ينظر إليه على أنه عدو الله وقريب الصلة للغاية بالطبيعة الإلهية في آن واحد. بيد أن تاريخه ليس معروفا بمثل العمق الذي يعرف به تاريخ الله، على اعتبار أن الأديان لم تتبن كلها ابليس الشرير، خصم الله؛ ونموذجه في الحياة الفردية يبقى بعيدا عن الأنوار في بادئ الأمر، لكن الشيء الأكيد أن الآلهة يمكن أن تنقلب إلى أبالسة أشرار إذا ما دحرتها آلهة غيرها، وعندما يغلب شعب من الشعوب على أمره، فليس يندر أن تستحيل آلهته الساقطة إلى أبالسة في نظر الشعب الغالب. لقد كان إبليس العقيدة المسيحية، شيطان القرون الوسطى، هو نفسه ملاكا ساقطا بحسب الميثولوجيا المسيحية، ومن جوهر واحد والله في الأصل. من المؤكد أنه ليس من السهل إلى هذا الحد اكتشاف أثر التصور الشيطاني للاب في حياة الفرد النفسي، لكن حين يرسم الغلام الصغير وجوها مكشرة وكاريكاتورية، فقد نفلح في أن نثبت أنه يهزأ من ابيه فيها: وعندما يخاف الصبيان والبنات من اللصوص وقطاع الطرق، فبوسعنا بغير ما صعوبة أن نتعرف في هؤلاء الخيرين مشتقات للأب. كذلك فإن البهائم التي تظهر في أرهبة الحيوان لدى الطفل هي في أكثر الأحيان بدائل للأب، مثلما كان الحيوان الطوطمي بديله في الأزمنة السالفة.

ولو كان متاحا لنا أن نجمع من المعلومات عن شخص كر. هايتزمن بقدر ما نجمع منها عن مريض من مرضانا الذين نقوم بتحليلهم، لكان أمكن لنا بيسر وسهولة أن نتبحر في تلك الازدواجية، وأن نحمل المريض على أن يتذكر من جديد متى وفي أية مناسبة دعاه الداعي إلى أن يخشى جانب ابيه ويبغضه، ولكان أمكن لنا بوجه خاص أن نكتشف العوامل الطارئة التي انضافت إلى العوامل النمطية لكراهية الاب، هذه العوامل التي تكمن جذورها حتما في العلاقات الطبيعية بين الأب والابن. ولعلنا كنا سنجد على هذا الأساس تفسيرا خاصا للكف عن العمل. ومن المحتمل أن يكون الاب في هذه الحال قد عارض رغبة ابنه في ان يصير رساما؛ ومن ثم فإن العجز الذي انتاب هذا الأخير، غداة وفاة والده، عن مزاولة فنه ليس، من جهة أولى، سوى تظاهر للطاعة المرجاة– وهذه ظاهرة معروفة جيدا– كما أن هذا العجز الذي سد في وجه الابن سبل تدبر معاشه وقوت يومه قد زاد، وثمة نقطة تفصيلية أخرى في علاقة الرسام بالشيطان تردنا بدورنا إلى الجنسية. فقد رأى الشيطان لأول مرة، كما أسلفت الإشارة، في صورة بورجوازي محترم. لكن سرعان ما تبدى له الشيطان، في المرة الثانية، عاريا، شائه الشكل، وله ثديا امرأة. وفي كل ظهور من ظهوراته التالية سيكون له زوج أو أكثر من الاثداء. وفي واحد من هذه الظهورات فقد سيحمل الشيطان، علاوة على الاثداء، قضيبا ضخما له نهاية ثعبانية. وهذا الالحاح على تمييز الجنس المؤنث بأثداء جسيمة ومتدلية (لا إشارة هناك على الاطلاق إلى الأعضاء التناسلية المؤنثة) قد يبدو متناقضا صارخا مع

فرضيتنا القائلة بأن الشيطان هو لرسامنا بديل عن الاب. والحق أن مثل هذا التمثيل للشيطان هو بحد ذاته غريب ومخالف للمألوف. صحيح أنه حينما يغدو "إبليس" مفهوما من مفاهيم النوع، وأنه حين يظهر بالتالي عدد كبير من الابالسة، فلا عجب أن وجدنا بعض هذه الابالسة وقد صورت في صورة اناث؛ لكن

أسطورية؛ فمن عنده قرون ومخالب نسر وأجنحة خفاش. وفي الأخير يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر

نعلم أن الشيطان الرجيم ينظر إليه على أنه عدو الله وقريب الصلة للغاية بالطبيعة الإلهية في آن واحد. بيد أن تاريخه ليس معروفا بمثل العمق الذي يعرف به تاريخ الله

أن الأديان لم تتبن كلها ابليس الشرير، خصم الله؛ ونموذجه في الحياة الفردية يبقى بعيدا عن الأنوار في بادئ الأمر

الشيء الأكيد أن الآلهة يمكن أن تنقلب إلى أبالسة أشرار إذا ما دحرتها آلهة غيرها، وعندما يغلب شعب من الشعوب على أمره، فليس يندر أن تستحيل آلهته الساقطة إلى أبالسة في نظر الشعب الغالب.

من المؤكد أنه ليس من السهل إلى هذا الحد اكتشاف أثر التصور الشيطاني للاب في حياة الفرد النفسي، لكن حين يرسم الغلام الصغير وجوها مكشرة وكاريكاتورية، فقد نفلح في أن نثبت أنه يهزأ من ابيه فيها

لعلنا كنا سنجد على هذا الأساس تفسيرا خاصا للكف عن العمل. ومن المحتمل أن يكون الاب في هذه الحال قد عارض رغبة ابنه في ان يصير رساما؛ ومن ثم فإن العجز الذي انتاب هذا الأخير، غداة وفاة والده، عن مزاولة فنه ليس، من جهة أولى، سوى تظاهر للطاعة المرجاة

يخيل إلي أن "ابليس"، بشخصيته البارزة والقوية وبكونه سيد الجحيم وعدو الله، لا يمثل أبدا إلا ذكرا، بل أكثر من ذكر، بقرون وذنب وقضيب ثعباني كبير. إن كان النفور من القبول بالخصاء قد جعل من المتعذر على رسامنا أن يتحرر من حنينه إلى الأب، فيسير علينا في هذه الحال أن نفهم أن يكون قد قصد صورة الأم طلبا للعون والخلاص. ولهذا يصرح أن والدة الله القديسة الماريازلية هي وحدها القادرة على تلخيصه من العهد الذي تعهد به لإبليس، وفي يوم ميلاد العذراء (8 أيلول) يفوز بالفعل بالخلاص. ولن يقيض لنا أبدا بطبيعة الحال أن نعرف إن لم يكن اليوم الذي عقد فيه العهد، 24 أيلول، يوما له مداولة القدسي الخاص هو أيضا.

أن هذا العجز الذي سد في وجه الابن سبل تدبر معاشه وقوته يومه قد زاد، وثمة نقطة تفصيلية أخرى في علاقة الرسام بالشيطان تردنا بدورنا إلى الجنسية.

يخيل إلي أن "ابليس"، بشخصيته البارزة والقوية وبكونه سيد الجحيم وعدو الله، لا يمثل أبدا إلا ذكرا، بل أكثر من ذكر، بقرون وذنب وقضيب ثعباني كبير

4- العهدان ص 32- 40

إن النسختان الأصليتان لهذين العهدين كانتا موجودتين بطبيعة الحال، لدى تحرير التذكار، في محفوظات دير ماريزل؛ وكانتا كلتاهما تحملان تاريخا واحدا هو سنة 1669. فالعهدان ليسا بالفعل من استيهامه نظير رؤى الشيطان؛ بل كانا وثيقتين محفوظتين، بحسب توكيد الناسخ، وبحسب شهادة رئيس الدير كيليان لاحقا، في محفوظات ماريازل، وكان بوسع جميع الناس رؤيتهما ولمسهما. يواجهنا اذن هنا إحراج. فإما أن نسلم بأن الرسام اختلق بنفسه في الوقت المرام، وعند احتياجه اليهما، الصكين اللذين اعيدا اليه على ما قيل لنا بشفاعة ربانية، وإما أن نعتبر السادة رهبان ماريازل وسان لامبير غير أهل للتصديق رغم كل التوكيدات الرسمية وشهادات الشهود المختومة بالأختام، الخ. واني لأقر بأنه ما كان لي إلا بمشقة وعسر أن اشتبه في الرهبان. صحيح انني أميل إلى التسليم بأن الناسخ أجرى بعض التزوير في شهادة رئيس الدير الأول حرصا منه توافق النصوص، لكن هذا "العمل الانشائي الثانوي" لا يتعدى حدود الفعال المشابهة للمؤرخين المحدثين والعلمانيين، وقد فعل على حال عن خلوص نية. ولقد استأهل الرهبان في ظروف أخرى حقا مبررا في أن نمحضهم ثقتنا، وقد أسلفت القول أنه ما كان ثمة ما يمنعهم من حذف الروايات المتعلقة بالشفاء غير الكامل وبمواصلة الشيطان تجاربه. لذا لا يبقى امامنا إلا أن نوجه أصبع الاتهام إلى الرسام، فقد كان هذا الأخير يحمل معه ولابد العهد المكتوب بحروف حمر حين قصد المزار لأداء فعل توبته فيه، وقد ابرزه حين أرتد نحو الشهود من الرهبان بعد لقائه بإبليس، وما من ضرورة تقضي أيضا بأن يكون هذا الصك هو عينه الذي جرى الاحتفاظ به لاحقا في المحفوظات؛ وبحسب إعادة بنائنا للقصة فإن هذا الصك الأول كان يمكن أن يكون حاملا لتاريخ 1668(قبل تسع سنوات من مشهد التعزيم).

لكن كل ما تقدم لن يعدو في هذه الحال أن يكون ضربا من الغش، لا من العصاب، كما لن يعدو الرسام أن يكون مزورا ومتظاهرا، لا ممسوسا! بيد أن الحدود بين العصاب والتظاهر، كما هو معلوم، عائمة

أنا لا أجد أي صعوبة أيضا في التسليم بأن الرسام كتب وحمل ذلك الصك، والوثائق التي تلته، وهو في حالة خاصة شبيهة بحالة رؤاه

5- العصاب اللاحق ص 40- 47

لكن كل ما تقدم لن يعدو في هذه الحال أن يكون ضربا من الغش، لا من العصاب، كما لن يعدو الرسام أن يكون مزورا ومتظاهرا، لا ممسوسا! بيد أن الحدود بين العصاب والتظاهر، كما هو معلوم، عائمة. وأنا لا أجد أي صعوبة أيضا في التسليم بأن الرسام كتب وحمل ذلك الصك، والوثائق التي تلته، وهو في حالة خاصة شبيهة بحالة رؤاه. وبالفعل، ما كان له أن يسلك غير هذا المسلك إذا شاء أن يجعل لتخيله العهد مع الشيطان ثم الخلاص منه أساسا من الواقع، أرجأ تنفيذه أكثر مما ينبغي، إذ فيما كان الرسام يصلي ويتهجد في كنيسة سان اتيين، في السادس والعشرين من كانون الأول، وقع نظره على امرأة صبية مشيقة القد تسير برفقة نبيل جميل الملبس، فما استطاع أن يرد عنه فكرة أنه كان بوسعه أن يكون محل هذا النبيل. وكان هذا الخاطر يستوجب العقاب، فإذا به، في مساء اليوم نفسه، وكأن صاعقة قد صعقته: فرأى نفسه محاصرا بألسنة النار وغاب عن الوجود. وبذلت جهود مضنية لإرجاعه إلى الوعي، لكنه ظل يتدحرج فوق أرض الغرفة إلى أن تدفق الدم من أنفه وفمه، وأحسن بأنه يسبح في العرق والأقذار، وسمع صوتا ينبئه بأن هذه الحالة قد حلت به عقابا له على أفكاره الباطلة والعابثة. وفي وقت لاحق سلطته الأرواح الشريرة بالحبال، وانذرته بأنه سيلقي يوميا نظير هذا العذاب، إلى أن يقر قراره على

إذ فيما كان الرسام يصلي ويتهجد في كنيسة سان اتيين، في السادس والعشرين من كانون الأول، وقع نظره على امرأة صبية مشيقة القد تسير برفقة نبيل جميل الملبس، فما استطاع أن يرد عنه فكرة أنه كان

الانتساب إلى رهبانية نسكية. وقد دامت هذه الأحداث إلى يوم 13 كانون الثاني، وهو التاريخ الذي تقف عنده اليوميات.

وفي أحوال أخرى أكثر تواترا بما لا يقاس يكون العصاب أكثر انعزالا واستقلالا عن هموم الحياة والبقاء. فالنزاع، الذي عنه ينشأ العصاب، يكون موضوعه إما اهتمامات ليبيدوية خالصة، وأما اهتمامات ليبيدوية مقرونة على نحو وثيق للغاية بهموم الحياة والبقاء. لكن دينامية العصاب في الحالات الثلاث واحدة. فالليبيدو المتراكم، الذي لا يسعه أن يجد سبيله إلى الاشباع في الواقع، يشق لنفسه، بواسطة النكوص، طريقا نحو تثبيتات قديمة عبر اللاشعور المكبوت، ومادام الأنا يجني فائدة ما من المرض، فإنه يسمح للعصاب بالوجود، وإن يكن الضرر الاقتصادي الذي يلحق بهذا الأنا أكيدا لا ريب فيه. كذلك، ما كان للوضع المادي المحزن لرسامنا أن يستثير لديه عصابا شيطانيا لو لم يولد لديه بؤسه حنينا معززا إلى أبيه.

ولما قيّض له أن يتحرر من سويدائه ومن إبليس، نشب فيه صراع جديد بين الرغبة الليبيدوية في التمتع بالحياة وبين إحساسه بأن تدبر أمر معاشه يقتضي منه بأشد الالحاح العزوف والزهد. وقد شعر الرسام– ومن المفيد أن نلاحظ ذلك– شعورا عميقا بالروابط التي تربط بين كلا طوري تاريخ آلامه، لأنه يعزو كلا منهما إلى حلف عقده مع الشيطان. وهو لا يميز على كل حال تمييزا فاصلا بين تأثير الروح الشرير وتأثير القوى الإلهية؛ وليس لديه لكليهما سوى اسم واحد: ظهورات شيطانية.

الفصل الثاني: الأفعال التسلطية والشعائر الدينية ص 48- 59

لست بالتأكيد أول من استرعى انتباهه التشابه القائم بين أفعال العصابيين التسلطية وبين الشعائر التي يدلل بها المؤمن على وعيه وتقواه، وصفة "الطقسي" التي تطلق على بعض هذه الأفعال التسلطية هي خير شاهد على ما أقول. بيد أن هذا التشابه يبدو لي أكثر من محض تشابه سطحي حتى ليجوز للمرء أن يستخلص، بطريق المقايسة، من فهم معين لمنشأ الطقس العصابي استنتاجات تتعلق بالسيرورات النفسية للحياة الدينية. ينتمي الناس الذين يؤدون أفعالا تسلطية أو طقسية/ ومنهم من يعاني أفكارا تسلطية وتمثلات تسلطية ونوازع تسلطية، الخ، إلى فئة سريرية خاصة جرت العادة على اطلاق اسم "العصاب الوسواسي" على الداء الذي تشكو منه، لكن لا يجوز لنا أن نحاول أن نشتق الطابع الأساسي لهذا الداء من اسمه، لأنه توجد، بحصر المعنى، ظاهرات نفسية مرضية أخرى قابلة لان تتلبس ما نسميه بـ "الطابع التسلطي"، ولا يزال من الضروري في الوقت الراهن أن تقوم معرفة مفصلة بهذه الحالات محل التعريف، على اعتبار اننا لم نفلح حتى الآن في استخلاص معيار العصاب الوسواسي، وهو معيار كامن في ارجح الظن تحت طبقات بعيدة الغور وأن يكن بالإمكان استشفاف وجوده في جميع تظاهرات ذلك الداء.

أن جميع أشكال النشاط يمكن أن تغدو أفعالا تسلطية بأوسع معاني الكلمة. إذا ما أرفقت بأفعال صغيرة مضافة وجعل لها إيقاع معين من الوقف والتكرار. وليس لنا أن نتوقع العثور على حد فاصل واضح بين "الطقس" و "الأفعال التسلطية". فالأفعال التسلطية تتأتى في أغلب الأحيان عن طقس ما. ويتألف المرض، علاوة على هاتين الظاهرتين، من موانع ونواه (خمول الإرادة) ليس لها من دور في الواقع إلا أن تتابع وظيفة الأفعال التسلطية، وذلك من حيث إن بعض الأشياء تحظر على المريض، بينما لا يسمح له ببعضها الآخر إلا بشرط مراعاة طقس مقرر مسبقا. ويسير علينا أن ندرك أين يكمن وجه الشبه بين الطقس العصابي وبين الشعائر الدينية ذات الصفة المقدسة: في الخوف المنبثق عن الضمير في حال الإهمال. وفي الاجتناب التام لسائر النشاطات (الازعاج ممنوع)، وفي الطابع المدقق والموسوس للتنفيذ. لكن الفروق أيضا بيّنة، وبعضها صارخ إلى حد تبدو معه هذه المشابهة ضربا من انتهاك القدسيات: النوع العظيم للأفعال التسلطية بالتعارض مع نمطية الطقس الديني (الصلاة، السجود، الخ)؛ والطابع الخاص للأولى بالتعارض مع الطابع العام والجماعي للشعائر الدينية؛ وعلى الأخص الفارق المتمثل في أن أفعال الطقس الديني الصغيرة تكون ذات مغزى وقصد رمزي، بينما تبدو أفعال الطقس

بوسعه أن يكون محل هذا النبيل

كان هذا الخاطر يستوجب العقاب، فإذا به، في مساء اليوم نفسه، وكأن صاعقة قد صعقته: فرأى نفسه محاصرا بألسنة النار وغاب عن الوجود. وبذلت جهود مضنية لإرجاعه إلى الوعي

في أحوال أخرى أكثر تواترا بما لا يقاس يكون العصاب أكثر انعزالا واستقلالا عن هموم الحياة والبقاء.

النزاع، الذي عنه ينشأ العصاب، يكون موضوعه إما اهتمامات ليبيدوية خالصة، وأما اهتمامات ليبيدوية مقرونة على نحو وثيق للغاية بهموم الحياة والبقاء

دينامية العصاب في الحالات الثلاث واحدة. فالليبيدو المتراكم، الذي لا يسعه أن يجد سبيله إلى الاشباع في الواقع، يشق لنفسه، بواسطة النكوص، طريقا نحو تثبيتات قديمة عبر اللاشعور المكبوت

مادام الأنا يجني فائدة ما من المرض، فإنه يسمح للعصاب بالوجود، وإن يكن الضرر الاقتصادي الذي يلحق بهذا الأنا أكيدا لا ريب فيه

لست بالتأكيد أول من استرعى انتباهه التشابه القائم بين أفعال العصابيين التسلطية وبين الشعائر التي يدلل بها المؤمن على وعيه وتقواه

أن هذا التشابه يبدو لي

العصابي ساذجة وعارية من المعنى، ويظهر العصاب الوسواسي هنا وكأنه صورة كاريكاتورية شبه هازلة وشبه مؤسية لديانة فردية خاصة. بيد أن هذا الفارق الحاد بين الطقس العصابي والطقس الديني هو بالتحديد الذي يتلاشى حينما نمضي قدما إلى الأمام في فهم الأفعال التسلطية بالاعتماد على تقنية التنقيب التحليلي النفسي. فهذا التنقيب يتيح لنا أن نضع حدا نهائيا للظاهر الذي يجعلنا نتصور أن الأفعال التسلطية بريئة وعارية من المعنى، كما أنه يميط اللثام عن المصدر الذي يأتي منه هذا الظاهر.

كان تحليل الأفعال التسلطية قد أتاح لنا أن نلقي نظرة على اتيولوجيا هذه الأفعال وعلى تسلسل الدوافع التي تحض عليها بصورة لا تقاوم. وبوسعنا أن نقول أن من يعاني ضروب الإجبار والنهي يتصرف وكأنه واقع تحت سلطان إحساس بالذنب، لا يعرف عنه شيئا بالأصل؛ إحساس لاشعوري بالذنب، كما يخلق بنا أن نقول من دون أن نأبه لما بين الألفاظ المقرون بينها على هذا النحو من تصادم. هذا الإحساس بالذنب يكمن مصدره في بعض السيرورات النفسية المبكرة، لكنه يجد عنصر إحياء دائم له في الإغواء الذي تجدده كل مناسبة راهنة. وهو يولّد، من جهة أخرى، حصرا مترقبا، انتظارا لمصيبة هي وما بالمرصاد، حصرا يربطه مفهوم القصاص بالإدراك الباطني للإغواء. إن الاستكاف التدرجي عن الغرائز المكوّنة لجبلة الإنسان، والتي قد توفر ممارستها لذة أولية للانا، هو على ما يبدو واحد من أسس تطور البشر الحضاري. وتتولى الأديان انجاز شطر من هذا الكبت للغرائز، إذ تحض الفرد على التضحية بملذاته الغريزية وتقديمها قربانا للإله. يقول الرب: "لي النقمة والجزاء". ويدلنا تطور الأديان القديمة، بحسب ما يتراءى لنا، على أن الكثير من "الآثام" التي عزف عنها الإنسان قد "حولت" إلى الله، وكانت لا تزال مباحة باسمه، بحيث أن التنازل والتحويل للإله كان الوسيلة التي بها يتحرر الإنسان من سلطان غرائزه الشريرة والضارة بالمجتمع. وعليه، ليس من قبيل المصادفة أن تكون جميع الخصائص البشرية– مع ما يتفرع منها من اعمال شريرة– قد عزيت إلى الإلهة القديمة بغير ما حدود، كما لم يكن ضربا من التناقض مع ذلك ألا يؤذن للإنسان بتبرير آثامه بالمثال الإلهي.

الفصل الثالث: موازيات ميثولوجية لتمثل وسواسي تشكيلي ص 60- 63

ان منتجات النشاط التفكيري اللاشعوري لدى واحد من مرضاي– وهو في حوالي الحادية والعشرين من العمر– لا تتظاهر للوعي في شكل أفكار وسواسية فحسب، بل أيضا في شكل صور وسواسية. وقد تنبثق الأفكار والصور معا أو قد تظهر مستقلة بعضها عن بعض. ولدى هذا المريض كانت كلمة وسواسية بعينها وصورة وسواسية بعينها تترددان في خاطره بترابط وثيق لردح من الزمن كلما شاهد أباه يدلف إلى الغرفة. وإذا أردنا تفسير مثل هذا العرض النادر في لا معقوليته وخلفه، فلابد أن نأخذ في اعتبارنا أن ذلك الفتى، المكتمل أصلا تطوره العقلي والمفعم أخلاقيا بصبوات سامية، كان قد تعاطى حتى السنة العاشرة من عمره ممارسات ايروسية شرجية نشطة ومتعددة الأشكال. وبعد أن تغلب على هذا الطور، ارتدت حياته الجنسية إلى ذلك الطور الأول بفعل الصراع اللاحق الذي خاض غماره ضد الايروسية التناسلية. وكان يحب أباه ويجله كثيرا، وكان يخشاه أيضا إلى حد ما. لكن أباه كان يبدو في ناظريه، وبالقياس إلى المثل الأعلى الذي جعل نصب عينيه أن يدركه: الزهد وقمع الغرائز، ممثل الشطط والشبق والنهم إلى المتع المادية.

الفصل الرابع: حادث من الحياة الدينية ص 64- 68

في خريف عام 1927 نشر صحفي جرماني– أمريكي (غ. س. فيرك) – وكنت قد سعدت بمقابلته– نص المحادثة التي دارت بيننا والتي تطرقت إلى ضعف ايماني الديني ولا مبالاتي بالحياة بعد الموت. وقد قرأت هذه المحادثة المزعومة على نطاق واسع، وعادت علي، فيما عادت، بالرسالة التالية من طبيب أمريكي: "... أكثر ما أثر فيّ كان ردك على هذا السؤال: هل تؤمن ببقاء الشخص بعد الموت؟ وقد أجبت: "هذا عندي سواء". وكانت نقطة الأوج في الجواب توكيده لي بأنه يصلي لله من أجلي بحرارة،

أكثر من محض تشابه سطحي حتى ليجوز للمرء أن يستخلص، بطريق المقايسة، من فهم معين لمنشأ الطقس العصابي استنتاجات تتعلق بالسيرورات النفسية للحياة الدينية

أن جميع أشكال النشاط يمكن أن تغدو أفعالا تسلطية بأوسع معاني الكلمة. إذا ما أرفقت بأفعال صغيرة مضافة وجعل لها إيقاع معين من الوقف والتكرار

ليس لنا أن نتوقع العثور على حد فاصل واضح بين "الطقس" و "الأفعال التسلطية". فالأفعال التسلطية تتأتى في أغلب الأحيان عن طقس ما

يسير علينا أن ندرك أين يكمن وجه الشبه بين الطقس العصابي وبين الشعائر الدينية ذات الصفة المقدسة: في الخوف المنبثق عن الضمير في حال الإهمال

تبدو أفعال الطقس العصابي ساذجة وعارية من المعنى، ويظهر العصاب الوسواسي هنا وكأنه صورة كاريكاتورية شبه هازلة وشبه مؤسية لديانة فردية خاصة

أن هذا الفارق الحاد بين الطقس العصابي والطقس الديني هو بالتحديد الذي يتلاشى حينما نمضي قدما إلى الأمام في فهم الأفعال التسلطية بالاعتماد على تقنية التنقيب التحليلي النفسي

كان تحليل الأفعال التسلطية قد أتاح لنا أن نلقي نظرة على اتيولوجيا هذه الأفعال وعلى تسلسل الدوافع التي تحض عليها بصورة لا تقاوم

سائلا إياه أن يهبني الايمان الحق. إن هذه الصلاة لم تستجب بعد. إن هذه الصلاة لم تستجب بعد. غير أن الحادث الديني الذي حدث لزميلي يدعو إلى التأمل وإعمال الفكر. وقد لا أحجم عن القول بأنه يستأهل بذل محاولة لتأويله ورده إلى دوافع وجدانية، لإن هذا الحادث مدهش بحد ذاته ولا يستند إلى أساس مكين من وجهة النظر المنطقية. فمعلوم، بالفعل، إن الله يدع فظائع كثيرة أخرى تحدث خلا تواجد جثة امرأة عجوز لطيفة التقاطيع على طاولة للتشريح. هكذا كانت الحال في كل زمان وآن، وما كان لها أن تختلف يوم كان زميلي الأميركي يستكمل دراسته. ومع ذلك ما كان يمكن لهذا الطبيب المبتدئ أن يكون جاهلا بالعالم إلى حد عدم معرفة أي شيء على الاطلاق عن جميع تلك المصائب والفواجع.

إن هذا كله لفي غاية من البساطة والشفافية بحيث لا يسعنا إلا أن نتساءل إن لم يكن فهم هذه الحالة يشكل خطوة إلى الأمام في سيكولوجيا الاهتداء الديني، وأني لأحيل القارئ هنا إلى كتاب ممتاز لسالكت دي سالتكس (الاهتداء الديني، بولونيا، 1924) يستفيد من جميع مكتشفات التحليل النفسي. ولدى مطالعة هذا المؤلف يتأكد لنا ما كان يمكن لنا أن نتوقعه: صحيح أن ليست جميع حالات الاهتداء قابلة للتأويل بمثل السهولة التي أولنا بها الحالة التي رويناها هنا، لكن حالتنا لا تناقض في اية نقطة الآراء التي كونها البحث المعاصر بصدد هذا الموضوع، وما يميز ملاحظتنا هو كونها ترتبط بمناسبة خاصة تتيح للشك أن يثور ثورة أخيرة قبل أن يتغلب عليه الفرد بصورة نهائية.

الفصل الخامس: التحليل النفسي وإثبات الوقائع في المضمار القضائي بمنهج تشخيصي ص 69-83

إن الادراك المتعاظم لضرورة عدم إيلاء ثقة كبيرة للشهادة، التي تمثل في الوقت الراهن في مضمار العدالة أساس عدد لا يحصى من أحكام الادانة، قد عزز لديكم ولا شك، أنتم قضاة الغد ومحاميه، الاهتمام المنصب على منهج جديد في البحث والتنقيب قمين بأن يرغم المتهم على أن يثبت بنفسه، بقرائن موضوعية، جرمه أو براءاته. وقوام هذا المنهج تجارب سيكولوجية، وأساسها مباحث سيكولوجية؛ وهو وثيق الصلة بتصورات محددة لم تطوّر في مضمار علم النفس الا مؤخرا. غير أن مهمة كل من الطبيب المعالج وقاضي الاستنطاق واحدة مع ذلك؛ فعلينا أن نكتشف ما هو خفي ومستتر في النفسية. وقد ابتكرنا لهذا الغرض مجموعة من طرائق الاستقصاء والتحري التي لا نشك في أن السادة رجال القضاء سيأخذون ببعضها. لعل من المفيد لكم، من وجهة نظر عملكم، أن تعلموا كيف نعمل نحن الأطباء في مضمار التحليل النفسي. فبعد أن يروي المريض لمرة أولى قصته. ندعوه إلى إسلاس قياد نفسه لتداعياته وإلى إخبارك بما يرد إلى خاطره بلا تقييد نقدي. ونحن بذلك ننطلق من فرضية، لا يشاطرنا هو نفسه إياها، ومؤداها أن تداعياته لن تكون اعتباطية، بل ستتحدد بعلاقتهما

بسره، ب "عقدته"، بحيث يمكن اعتبارها، إذا جاز القول، فسائل من عقدته. وكما ترون، فإنها عين الفرضية التي بفضلها وجدتم أنه من الممكن تأويل تجارب الترابط. غير ان المريض، الذي نطلب إليه أن يتبع القاعدة وأن يبلغنا بكل تداعياته، لا يبدو قادرا على فعل ذلك.

أما ثاني مؤشر معلوم لديكم من مؤشرات العقدة، أي تعديل مضمون الاستجابة، فيلعب أيضا دوره في تقنية التحليل النفسي. فقد اعتدنا أن نرى دوما في أبسط تغيير يطرأ لدى مريضنا على طريقة التعبير عن أفكاره إشارة إلى معنى خفي، وقد نعرض أنفسنا، حتى عن طواعية، بتمسكنا بمثل هذا التأويل. لسخريته وهزئه لأمد من الزمن. ونحن نترصد لديه على وجه التحديد العبارات التي يتظاهر فيها اللبس والتي تشف، من خلال التعبير الحيادي، عن المعنى الخفي. وليس المريض وحده، بل حتى الكثيرون من زملائنا الجاهلين بالتقنية التحليلية النفسية وبشروطها الخاصة يأبون هنا أن يمحضونا ثقتهم ويتهموننا بالشطط في الشطارة وبالمغالاة في التدقيق بالأمور وفي تأويلها؛ بيد أن الحق غالبا ما يكون معنا في نهاية المطاف. لكيلا تحسبوا أنني انتهيت من بيان التطابقات التي أجد في طلبها عندما سأعترف لكم بأنه لا توجد في التحليل النفسي ظاهرة مماثلة لظاهرة "الاستمرار". ومرد هذا الفرق الظاهري إلى الشروط

أن نقول أن من يعاني ضروب الإجبار والنهي يتصرف وكأنه واقع تحت سلطان إحساس بالذنب، لا يعرف عنه شيئا بالأصل؛ إحساس لاشعوري بالذنب

هذا الإحساس بالذنب يكمن مصدره في بعض السيرورات النفسية المبكرة، لكنه يجد عنصر إحياء دائم له في الإغواء الذي تجدده كل مناسبة راهنة

إن الاستنكاف التدريجي عن الغرائز المكوّنة لجبلة الإنسان، والتي قد توفر ممارستها لذة أولية للأنا، هو على ما يبدو واحد من أسس تطور البشر الحضاري

أن التنازل والتحويل للإله كان الوسيلة التي بها يتحرر الإنسان من سلطان غرائزه الشريرة والضارة بالمجتمع

ليس من قبيل المصادفة أن تكون جميع الخصائص البشرية- مع ما يتفرع منها من اعمال شريرة- قد عزيت إلى الإلهة القديمة بغير ما حدود، كما لم يكن ضربا من التناقض مع ذلك ألا يؤذن للإنسان بتبرير آثامه بالمثال الإلهي

أن مهمة كل من الطبيب المعالج وقاضي الاستنطاق واحدة مع ذلك؛ فعلينا أن نكتشف ما هو خفي ومستتر في النفسية

إن مصر لم تكن بحال من الأحوال موطن العبث واللامعقول، بل كانت على العكس موطنا من أقدم مواطن العقل البشري الذي كان قيد التطور

الخاصة لتجاربكم، فأنتم لا تتركون، بالإجمال، لمفعول العقدة الوقت الكافي ليتظاهر؛ فما أن تبدأ بإتيان مفعولها حتى تصرفوا انتباه الشخص المفحوص بكلمة حاثة، حيادية في الأرجح، ولربما لاحظتم عندئذ أن هذا الشخص يبقى أحيانا مشغولا بالعقدة بالرغم من البلبلة التي عرضتموه لها.

الفصل السادس: طباق المعاني في الألفاظ البدائية ص 84- 92

أثناء مطالعتي بالمصادفة لكتاب بقلم ك. آبيل، أن أفهم سر هذا الميل الغريب الذي يتسم به عمل الحلم: أعني نزوعه إلى تجاهل التناقض وإلى التعبير بتمثل واحد عن أشياء متعاكسة، وأهمية الموضوع ستبرر لي الاستشهاد هنا حرفيا بالمقاطع الفاصلة من بحث آبيل (مع استبعادي معظم الأمثلة). وهي تطلعنا، بالفعل، على هذا الأمر الباعث على العجب: إن النهج الآنف الذكر، الذي اعتاد عمل الحلم سلوكه، هو أيضا من خصائص أقدم اللغات المعروفة. فبعد أن يثبت آبيل قدم اللغة المصرية، التي تكونت- ولابد- قبل زمن طويل من عصر النقوش الهيروغليفية الأولى، بردف قوله: "اذت تشتمل اللغة المصرية، وهي الأثر الثمين الوحيد المتبقي من عالم بدائي، على عدد معين من الألفاظ التي لها معنيان، وأحدهما هو بالضبط نقيض الآخر. ولنتصور، إذا كان في مقدورنا أن نتصور شيئا من هذا القبيل، استحالة منطقية صارخة كالاستحالة التالية: إن كلمة قوي تعني في آن واحد القوي والضعيف؛ وكلمة ضوء تفيد في الدلالة على الضوء والظلمة معا؛ لنتخيل أن بورجوازيا من ميونيخ سمى الجعة جعة، بينما استخدم بورجوازي آخر اللفظ في الكلام عن الماء: فهذا يمكن أن يكون مثالا على الطريقة العجيبة التي كان قدامى المصريين يستعملون بها عادة لغتهم. وهل نستطيع أن نلوم، بعد ذلك، من إذا طرق مسامعه هذا الكلام هز رأسه غير مصدق؟". والحال إن مصر لم تكن بحال من الأحوال موطن العبث واللامعقول، بل كانت على العكس موطنا من أقدم مواطن العقل البشري الذي كان قيد التطور ... كان لها نظام أخلاقي صاف يفيض نبلا، وقد صاغت القسم الأكبر من الوصايا العشر في زمن كانت فيه الشعوب، الموقوفة عليها الحضارة اليوم، لا تزال تقدم الأضاحي البشرية لأصنامها الظمئة إلى الدم، وأن شعبا اشعل مصباح العدالة والحضارة في مثل تلك الأزمنة المظلمة ما كان له أن يكون بليدا إلى هذا الحد في طريقته اليومية في الكلام والتفكير... وهكذا نجد أن تلك اللغة العجيبة لا تحتوي فقط على ألفاظ تعني قويا وضعيفا في آن معا فحسب، أو أمر وأطاع فحسب، بل كذلك على كلمات مزاجية مثل شيخ- فتى، بعيد- قريب، ربط- فصل، خارج- داخل... وعلى الرغم من هذا الجمع بين ألفاظ ذات معان متنافرة، فإن أولى هذه الكلمات لا تعني سوى فتى، وثانيتها قريب، وثالثتها ربط، ورابعتها داخل... اذن فعن قصد وعمد حقا جرى الجمع في هذه الكلمات بين تناقضات في المفاهيم، وذلك ليس بهدف خلق مفهوم جديد، كما يحدث في اللغة الصينية أحيانا، بل فقط بقصد التعبير، بواسطة تلك الكلمة المزجية، عن معنى جزء واحد فقط من جزئيها المتضادين، علما بأن هذا المعنى كان يمكن أن يؤديه هذا الجزء المنفرد وحده. إن التوافق بين خصائص عمل الحلم التي أشرنا اليها في مستهل هذا المقال وبين خصائص العرف الألسني التي اكتشفها فقيه اللغة في أقدم اللغات، يبدو لنا بمثابة توكيد للتصور الذي كونتاه لأنفسنا عن التعبير عن الفكر في الحلم، وهو تصور مؤداه أن لهذا التعبير طابعا نكوصيا سحيق القدم. وهنا لا نستطيع أن نرد علينا، نحن الأطباء النفسانيين، فكرة مؤداها أننا سنكون أقدر على فهم لغة الحلم وعلى ترجمتها فيما لو كنا أكثر اطلاعا على تطور اللغة.

الفصل السابع: صعوبة أمام التحليل النفسي ص 93- 103

في التحليل النفسي وبعد عدد كبير من الملاحظات والانطباعات الانفرادية، تكوّن في خاتمة المطاف ضرب من نظرية، يعرف باسم "نظرية الليبيدو". فالتحليل النفسي يسعى، كما هو معروف، إلى فهم الاضطرابات المسماة بالاضطرابات

العصبية وإلى شفائها، وقد كان من الضروري، للتصدي لهذه المشكلة، العثور على نقطة يمكن

كان لها نظام أخلاقي صاف يفيض نبلا، وقد صاغت القسم الأكبر من الوصايا العشر في زمن كانت فيه الشعوب، الموقوفة عليها الحضارة اليوم، لا تزال تقدم الأضاحي البشرية لأصنامها الظمئة إلى الدم

أضحت جملة من الفرضيات التي تتعلق بحياة الانسان الغريزية هي الأساس الذي قام عليه تصورنا عن الحالة العصبية

علينا نحن تقع مهمة الاهتداء إلى أول طريق، أن التصور الشعبي يخص بالتمييز الجوع والحب ويرى فيهما ممثلين للغرائز التي تنزع من جهة أولى إلى بقاء الفرد، ومن الجهة الثانية إلى تناسله

نأخذ بدورنا بهذا التمييز الذي يبدو طبيعيا تماما، نفضل على صعيد التحليل النفسي غرائز البقاء، أو غرائز الأنا، عن الغرائز الجنسية؟،

نطلق على القوة التي تتظاهر بها الغريزة الجنسية في الحياة النفسية اسم الليبيدو، أي الرغبة الجنسية، ونرى فيها شيئا يضارع الجوع وإرادة القوة، الخ، في عداد غرائز الأنا

أن إصابة الفرد أو عدم اصابته بمرض عصابي رهن بكمية الليبيدو وبإمكانية تلبية هذا الأخير وتفريغه من شحنته بإشباعه، ونفهم أن شكل مرضه يتحدد بالكيفية التي انجز بها الفرد تطور وظيفته الجنسية، أو، كما نقول، بالتثبيتات التي عاناها الليبيدو عنده في اثناء هذا

التصدي لها منها، فقر القرار على البحث عنها في الحياة الغريزية للنفس. وهكذا أضحت جملة من الفرضيات التي تتعلق بحياة الانسان الغريزية هي الأساس الذي قام عليه تصورنا عن الحالة العصبية. وعلينا نحن تقع مهمة الاهتداء إلى أول طريق، أن التصور الشعبي يخص بالتمييز الجوع والحب ويرى فيهما ممثلين للغرائز التي تنزع من جهة أولى إلى بقاء الفرد، ومن الجهة الثانية إلى تناسله. ونحن إذ نأخذ بدورنا بهذا التمييز الذي يبدو طبيعيا تماما، نفضل على صعيد التحليل النفسي غرائز البقاء، أو غرائز الأنا، عن الغرائز الجنسية؟، ونطلق على القوة التي تتظاهر بها الغريزة الجنسية في الحياة النفسية اسم الليبيدو، أي الرغبة الجنسية، ونرى فيها شيئا يضارع الجوع وإرادة القوة، الخ، في عداد غرائز الأنا. ونكتشف أيضا أن إصابة الفرد أو عدم اصابته بمرض عصابي رهن بكمية الليبيدو وبإمكانية تلبية هذا الأخير وتفريغه من شحنته بإشباعه، ونفهم أن شكل مرضه يتحدد بالكيفية التي انجز بها الفرد تطور وظيفته الجنسية، أو، كما نقول، بالتثبيتات التي عاناها الليبيدو عنده في اثناء هذا التطور. والتقنية التي بحوزتنا، وهي ليست من ابسط التقنيات، تمكننا من ممارسة تأثير نفسي على المريض، وتتيح لنا في أن واحد أن نفهم وأن نرد العديد من ضروب الأعصبة إلى أصلها. عندئذ يتوصل العلاج التحليلي النفسي إلى إعادة النظر في سيرورة الكبت، وإلى توجيه ذلك الإسراع إلى مآل أفضل وانسب للصحة. وهنا ينحي علينا اخصام غير متفهمين باللائمة، متهمين إيانا بالنزعة الحصرية وبالمغالاة في تقديرنا لأهمية الغرائز الجنسية: فللإنسان بلا ريب اهتمامات أخرى غير الاهتمامات الجنسية! وهذا في الحق ما لم ننسه أو ننكره لحظة واحدة.

لزام علينا، في اثناء عملنا العلاجي، ان نولي توزيع الليبيدو لدى المريض اهتمامنا، لذا نسعى إلى كشف التمثلات الموضوعانية التي تتثبت عليها طاقته الليبيدية. وعلى الحالة التي يحتجز فيها الأنا الليبيدو نطلق اسم النرجسية، تذكرة بالأسطورة الاغريقية عن نرجس الفتى، المغرم بصورة نفسه المنعكسة فوق صفحة الماء. وبذلك نعزو إلى الفرد القدرة على التقدم بتحوله عن النرجسية إلى الحب الموضوعاني. لكننا لا نعتقد أنه من الممكن أن ينصب كل الليبيدو على المواضيع. بل يبقى على الدوام في الأنا مقدار ما من الليبيدو، وتظل هناك درجة ما من النرجسية رغم وجود حب غيري نام ومتطور جدا. فالإنسان خزان كبير، يسفح خارجه الليبيدو المخصص للمواضيع، وإليه يرتد من جديد. إننا نعلم جميعا أن مباحث تشارلز داروين ومعاونيه وسابقيه قد وضعت حدا لادعاء الانسان هذا منذ نحو نصف قرن من الزمن. فما الانسان بغير الحيوان، ولا بأفضل منه، بل أنه متحدر هو نفسه من السلسلة الحيوانية، وصلات قرباه ببعض الأنواع قريبة، وبغيرها بعيدة. وفتوحاته الخارجية لم تتوصل إلى محو علامات هذا التكافؤ التي تتجلى أن في بنية جسمه وأن في استعداداته النفسية. وذلكم هو الإذلال الثاني للنرجسية البشرية: الاذلال البيولوجي. صحيح أن الطب العقلي ينكر أن تكون هذه الظاهرات من فعل أرواح شريرة خارجية اقتحمت الحياة النفسية، لكنه يكتفي بعد هذا الانكار بالقول وهو يهز كتفيه: انحطاط، استعداد وراثي، نقص تكويني! وبالمقابل يأخذ التحليل النفسي على عاتقه فك لغز هذه الحالات المرضية المقلقة، وينظم ابحاثا طويلة ومدققة، ويصوغ مفاهيم بديلة وانشاءات علمية، ويستطيع في خاتمة المطاف أن يقول للأنا: "لا شيء غريب قد دلف اليك، وانما هو جانب من حياتك النفسية الخاصة افلت من معرفتك ومن سلطان ارادتك. ولهذا السبب أصلا تجد نفسك في منتهى الضعف في دفاعك؛ فأنت تصارع بشطر من قوتك ضد الشطر الآخر، ولا يسعك استجماع قوتك كلها كما تفعل فيما لو كنت تواجه عدوا خارجيا. هذا هو الخطاب الذي يود التحليل النفسي توجيهه إلى الأنا. بيد أن الاضافتين اللتين يضيفهما إلى علمنا، والمتمثلين في ان الحياة الغريزية الجنسية غير قابلة للترويض الكامل في داخل انفسنا وفي أن السيرورات النفسية هي بحد ذاتها لا واعية ولا تغدو في متناول الانا وفي إمرته الا عن طريق ادراك غير كامل وغير اكيد، تعادلان التوكيد بأن الانا ليس السيد في بيته. وهما تشكلان الاذلال الثالث للكبرياء البشرية، وهو اذلال سأنعته بالسيكولوجي. فهل من عجب في هذه الحال أن ضن الانا بعطفه على التحليل النفسي وأبى بعناد تصديق مدعاه؟

التطور

لزام علينا، في اثناء عملنا العلاجي، ان نولي توزيع الليبيدو لدى المريض اهتمامنا، لذا نسعى إلى كشف التمثلات الموضوعانية التي تتثبت عليها طاقته الليبيدية

لا نعتقد أنه من الممكن أن ينصب كل الليبيدو على المواضيع. بل يبقى على الدوام في الأنا مقدار ما من الليبيدو، وتظل هناك درجة ما من النرجسية رغم وجود حب غيري نام ومتطور جدا

أن مباحث تشارلز داروين ومعاونيه وسابقيه قد وضعت حدا لادعاء الانسان هذا منذ نحو نصف قرن من الزمن

أن الطب العقلي ينكر أن تكون هذه الظاهرات من فعل أرواح شريرة خارجية اقتحمت الحياة النفسية، لكنه يكتفي بعد هذا الانكار بالقول وهو يهز كتفيه: انحطاط، استعداد وراثي، نقص تكويني!

بالمقابل يأخذ التحليل النفسي على عاتقه فك لغز هذه الحالات المرضية المقلقة، وينظم ابحاثا طويلة ومدققة، ويصوغ مفاهيم بديلة وانشاءات علمية، ويستطيع في خاتمة المطاف أن يقول للأنا: "لا شيء غريب قد دلف اليك، وانما هو جانب من حياتك النفسية الخاصة افلت من معرفتك ومن سلطان ارادتك

ان الحياة الغريزية الجنسية غير قابلة للترويض الكامل في داخل انفسنا وفي أن السيرورات النفسية هي بحد

ذاتها لا واعية ولا تغدو في متناول الأنا وفي إمرته الا عن طريق ادراك غير كامل وغير اكيد، تعادلان التوكيد بأن الأنا ليس السيد في بيته

والفضل الوحيد للتحليل النفسي أنه لم يقدم على طبق من التجريد هاتين الاطروحتين، الشاق احتمالهما على النرجسية: أطروحة الأهمية النفسية للجنسية، وأطروحة لاشعورية الحياة النفسية. بل هو يسوق الدليل عليهما بواسطة مادة تعني كل انسان على حدة، وترغم كل واحد على اتخاذ موقف من هاتين المشكلتين.

يعد هذا الكتاب "إبليس في التحليل النفسي"، من بين الكتب الأكثر رواجا للعالم الطبيب سيغموند فرويد سعى من خلاله أن يعطي تحليلا نفسيا مفصلا ودقيقا للأبلسة والشياطين. أوصي بقراءة هذا الكتاب الممتع بعقلية متفتحة لفهم العلاقة بين أرواح الشياطين ومفاهيم التحليل النفسي.

رابط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/BR168MaanLuciferInPsychoanalysis.pdf

****** ******* ******

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

*** *** ***

جائـزة البحـث العلمـي سـداد جـواد التميمـي

لشبكة العلوم النفسية العربية 2023

العام 2023 : مختصة في الطب النفساني

دعـوة للترشـح للجائـزة
http://www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2023/APNprize2023.pdf

التكريم بلقب "الراسخون في علوم وطب النفس"

"مؤسسة العلوم النفسية"

تكرم العام 2024

شخصية طبنفسانية عربية

بلقب " الراسخون في علوم وطب النفس"

دعوة لترشيح شخصيات طبنفسانية
http://www.arabpsynet.com/Rassikhoun/Rassikhun2024/APN-Rassikhun2024.pdf

التكريم بلقب " أولوا العزم من العلماء النفسانيين "

مؤسسة العلوم النفسية"

احتفاء بالرواد الراحلين من علمائنا في الطب النفساني

شبكة العلوم النفسية العربية

تُكرم العام 2024 شخصية عربية طبنفسانية راحلة

بلقب" أولوا العزم من العلماء النفسانيين "
http://www.arabpsynet.com/ScChair/UluElazm2024/APN-UluElazm2024.pdf